دُعابةُ إبليس (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما إني سأقصُّ هذه الحكايةَ كما اتفقتْ ، لا أزيِّنها بخيال ، لا أتزيَّدُ فيها بخبر ، ولا أولِّد لها معنى ؛ فإنما هي حكايةُ عبث الخبيث فيها حذقُه ودهاؤه ، ورقتها غلظتُه وشره ، معانيها بلاؤه ومحنته ؛ وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم والله المستعان

لما فكرتُ في وضع مقالة (إبليس) من أحاديث (ابن سكين) وأدرتُ رأيي في نهجها وحدودها ومعانيها ، جعل فكري يتقطع في ذلك ، يذهب ويجيء كأن بيني وبينه منازعة ، أو كأن في نفسي شيئاً يثنيني ويقطعني عن العزم ؛ وخيِّل إليَّ حينئذ أن (إبليس) هذا منفعةٌ من المنافع . . . وأنه هو قانون الطبيعة الذي نصُّ مادته الأولى : ما أعجبك فهو لك ، ونصُّ مادته الأخيرة : ما احتجتَ اليه فثمنُه أن تقدرَ على أخذه . . .

وهجس في نفسي هاجسٌ أن (إبليس) قائم في لفظ الحرية كما هو قائم في لفظ الاثم ، وأنه إن يكن في قلوب الفُساق فهو أيضاً في أدمغة الفلاسفة ؛ ولئن كان في سقوط أهل الرذيلة إلى الرذيلة ، فهو كذلك في سموّ أهل الفن إلى الفن . . . قال الهاجس : وإن (إبليس) أيضاً هو صاحب الفضيلة العملية في هذا العصر المادي ، فهو من ثمّ حقيقٌ أن يلقِّبوه صاحب الفضيلة . . .

ولكني لم أحفل بهذه الوساوس ولم أعُجّ على شيء منها ، واستعنتُ الله وأمضيتُ نيتي على الكتابة ، وأخذتُ أقلِّب الموضوع ، وأنبِّه فكري له ، وأستشرفُ لما يؤدِّي اليه النظر ، وأتطلَّع لما يجيء به الخاطر ، وألتمس ما أبني عليه الكلام كما هي عادتي ؛ فلم يقع لي شيء ألبتة كأنما ذهب أولُ ابتداء الموضوع فلا أولَ له ولا سبيل إلى اقتحامه ، وكأنه من وراء العلم فلا يُبلغ اليه ، وكأنه من التعذُّر كمحاولة تصوير حماقة الحياة كلها في كلمة

* * *

ومن عادتي في كتابة هذه الفصول التي تنشرها (الرسالة) أن أدع الفصلَ منها تقلِّبه الخواطر في ذهني أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأترك أمره للقوة التي في نفسي فتتولد المعاني من كل ما أرى وما أقرأ وتتناول من ههنا وههنا ، ويكون الكلام كأنه شيء حيٌّ أُريدَ له الوجودُ فوُجد

ثم أكتب نهار الجمعة ومن ورائه ليلُ السبت وليلُ الأحد كالمدد من وراء الجيش إذا ثالثني فترة أو كنت على سفر أو قطعني عن الكتابة شيء مما يعرض

وفي أسبوع (إبليس) لعنه الله مرت الأيام الثلاثة وفيها ثلاثة ألوان : ضجَرٌ لا رَوْحَ فيه ، وكسلٌ لا نشاط معه ، واضطراب لا مِساك له . وأطلتُ التفكير يوم الخميس فكانت تعتريني خواطر مضحكة ، فيعرض لي مرة أن أتصور إبليس امرأة ليكون إبليس الجميل . . . وتارة أتوهم أن إبليس يريد أن يكون شيخاً كبعض رجال الدين الذين لا تزال تطلع على خائنةٍ منهم ، ليقال إبليس التقي المصلي . . . وحينا أظن أنه يريد أن يكون كاتباً مؤلفاً شهيراً ليقال إبليس الفكر المصلح . . . وخطر لي أخيراً أنه يريد أن يكون حاكماً ملحداً شيوعياً فاجراً ليكون إبليس التام لا إبليس الناقص . . .

* * *

ولما ذهبت الأيام الثلاثة باطلاً خيِّل إليَّ أن إبليس أخزاه الله يسألني عن المقالة : إلى أي شيء انقلبتْ . . . ؟ فشقَّ ذلك عليَّ واغتممتُ به ، غير أني اطمأننت إلى يوم الجمعة وأن وراءه ليلتين . وكانت قد غربت شمسُ الخميس فقلت فلأخرجْ لأتفرَّج مما بي ، وعسى أن أجمع نفسي للتفكير إذا جلستُ في الندي ، ولعله يقع ما أستوحيه أو ينفتح لي بابٌ في القراءة

وخرجتُ فلم أجاوز الدار حتى ابتدرني من هبط عليه الخبر من القاهرة أن نسيباً لنا من العظماء توفي أخوه اليوم . فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ ضاع يوم الجمعة إذ لا بد من السفر لتشييع الجنازة وحضور المأتم ، ثم قلت : لعل في هذا السفر

(١) الدعابة للمزاح واللعب ، وكل ما سيرد في هذه المقالة فهو صحيح لم نخترع منه شيئاً

استجماماً ونشاطا فأستدركَ الأسبوع كلّه في يومين ، وإنما الاستكثارُ بالقوة لا بالزمن ، ولا بدّ لإبليس في الموت والحياة ، فليس إلا اطِّراحُه وقلةُ المبالاة به ، وإنما هي خطرات من وساوسه

وأصبحتُ في القاهرة ومشيت في الجنازة قبل الظهر مسيرة ساعة كاملة ؛ وكانت الشمس ساطعةً تتلألأ وأنا مُثقلٌ بثياب الشتاء ، وكنت أتوقع أن يكون اليوم من أيام الريح المجنونة . فلما انتهينا إلى الصحراء هبّت الريحُ هبوبا ليناً ثم زَفَّتْ فكانت إلى الشدة ما هي ، ولكنها ماضية تَسْفِي الرملَ في الأعين فيأخذ في أجفاني أكالٌ وتهييج ، وليس معي شيء أتّقيها به . غير أني شغلت فكري برؤية المقابر وجعلتها في نفسي كالمقالة المكتوبة سطراً وراء سطر ؛ وقلت : ههنا الحقيقة في أول تفسيرها ، وغير المفهوم في الحياة يُفهم هنا

ثم رجعت مُنَدًّى الجسم بالعرق وعليَّ نَضْحٌ منه ، وكان القميص من الصوف ، وبصدري أثر من النزلة الشُّعبية ؛ وإذا تندَّى الصوف وجب نزعه وإلا فهي العلةُ ما منها بد

ثم لم تكن غير ساعة حتى انخرقت الريح وجعلت تعصف وبَرَدَ الجو فأيقنتُ أنه الزكام ، وقلت في نفسي : هذا بابٌ على حِدَة ، والمقالة ذاهبة لا محالة فسيتخلّف الذهن ويتبلّد ؛ والشيطانُ كريم في الشر يعطي من غير أن يُسأل . . . .

وثقل ذلك عليَّ فكان الغم به علةً جديدة ، بيد أني لم أزل أرجو الفرصة في أحد اليومين السبت والأحد . وقلت : إن من البلاء الفكرَ في البلاء ، ولعل من السلامة الثقة بالسلامة ؛ فإذا نبهتُ العزيمة رجوتُ أن يتغلغل أثرها في البدن كله فيكون علاجاً في الدم يحدث به النشاط ويُرهَفُ منه الطبع ويَجِمُّ عليه النفس . وفي قوة العصب كهربائية لها عملها في الجسم إذا أحسن المرءُ بثّها في نفسه وأحكم إفاضتها وتصريفها على طريقة رياضية ؛ وهي الدواء حين يعجز الدواء وهي القوة حين تخذل القوة

فاعتزمتُ وصمّمتُ واحتلتُ على الإرادة وتكاثرتُ من أسباب الثقة وترصّدتُ لها السوانح العقلية التي تسنح في النفس وقلت لإبليس : اجهد جهدك لما تذهب مذهباً إلا كان لي مذهب ؛ ولكن اللعين أخطر في ذهني قول القائل يسخر بذلك الكاتب البغدادي (١)

لو قيل : كم خمسٌ وخمسٌ لاغتدى
يوماً وليلتَه يَعُدُّ ويَحْسُب
ويقول : مُعْضِلةٌ عجيبٌ أمرُها
ولئن فهمتُ لها ، لأمريَ أعجب
خمسٌ وخمسٌ ستةٌ أو سبعة
قولان قالهما الخليلُ وثعلب

***

ثم أجمعتُ الرجوعَ من يومي إلى (طنطا) لأتقي البر بملاجئه إن نالني أثره ، وكان عليَّ وقتٌ إلى أن يقوم القطار فذهبتُ فقضيت واجباً من زيارة بعض الأقارب في ضاحي (الجيزة) ، ثم ركبت الترام الذي أعلم أنه ذاهب إلى محط سكة الحديد

وجلست أفكر في إبليس ومقالته ، والترام ينبعث في طري نحو ثلث الساعة ، حتى بلغ الموضع الذي ينعرج منه إلى المحطة وهو بحيال (جمعية الاسعاف) ، حيث تنشعب طرق أخرى وكنت منصرفاً إلى التفكير مستغرقاً فيه ، طائف النظرا على الجو ، فما راعني إلا اختلافُ منظر الطريق ؛ وأنتبه فإ الترام يَمْرُق مروق السهم في تلك السبيل الصاعدة إ (الجيزة) .... من حيث جئت

فلعنت الشيطان وتلبثتُ حتى وقف هذا الترام فغادرتُ ورجعت مهرولا إلى ذلك المنشعب ، فصادفت تراماً آخر فوثبت إليه كأني أحمل إليه حملا ، ودفعت الأجرة ، وانطلق فإذا هو منصبٌّ في تلك الطريق عينها الذاهبة إلى الجيزة م حيث جئت ... ولا أستطيع الانحدار منه وهو منطلق فتسخّطت ولعنت الشيطان مرة أخرى ، ورأيت أن عبث قد ترادفَ ، فلما سكن الترام رجعت مهرولا إلى ذلك المنشع ولم يبق من الوقت غير قليل

وأنظرُ ثمَّ فإذا ترامٌ وراء ترام ، وإذا قد وقعت حاد

(١) قيل هذا الشعر في وصف مروان الكاتب وهو رجل من بغدا وكان كاتبا على الخراج فسخر منه الشاعر بهذا الأسلوب البديع

لاحدى السيارات واجتمع الناس وسُدَّت الطريق.... فجاشت أغلى من الغيظ، ولعنت هذا الدَّعَّابة الخبيث، وأذكرني اللعين نادرة الأعرابي الذي عضه ثعلب، فأتى راقياً، فقال له الراقي: ماعضك؟ فاستحى أن يقول ثعلب، وقال: كلب، فلما ابتدأ الرجل برقية الكلب قال له الأعرابي: واخلط بها شيئاً من رقية الثعالب.....

* * *

ثم إني لم أر بداً من بلوغ المحطة على قدمى لأتمَّ على عزمتى فى مراغمة اللعين، فأسرعت أطوى الأرض وكأنما أخوض فى أحشائه، وكان بصدرى التهابٌ فهاج بى، غير أنى تجلدت واتسمتُ لاحتماله وبلغت حيث أردت

ثم ذهبت ألتمس فى القطار عربة خاصة أعرفها، كانت من عربات الدرجة الأولى فجعلوها فى الثانية يرفهون بها بعض الترفيه على طائفة من المسافرين؛ وأصبت فيها مكاناً خالياً كأنما كان مهيأ لى بخاصة ... فانحططتُ فيه إلى جانب رجل أوربى أحسبه ألمانياً لتفاوت خَلْقِه وعُنْجُهيّته؛ وجلست أنفس عن صدرى ثم أقبلت أسخر من إبليس ونكايته، وجعلتُ أتعجب مما اتفق من هذا التدبير

وتحرك القطار وانبعث وكان الأوربى إلى جانبى مما يلى النافذة وقد تركها مفتوحة فأحسستُ الهواء ينصب منها كالماء البارد وأنا متندٍّ بالعرق؛ وترقبت أن يغلقها الرجل فلم يفعل، فصابرتُه قليلاً فاذا هو ساكن مطمئن يتروَّحُ بالهواء وكأنما يشربه، وتأملته فاذا شيخٌ فى حدود الستين أو فوقها غير أنه على بقية من قوة مصارع فى اكتناز عضله واجتماع قوته ووثاقة تركيبه، فأيقنت أن الهواء من حاجته، وهممتُ أن أنبهه أو أقوم أنا فأغلق النافذة، ولو شئت أن أفعل ذلك فعلت، غير أن الشيطان أخزاه الله وسوس لى أن هذا رجل أجنبي غريب وأنت مصرى شرق فلا يحسن بك أن تُعلمه وتملأ الحاضرين أمامكما أنك أنت الأضعف على حين أنه هو الأسنّ، وكيف لا تقوم لما يقوم له وقد كنتَ تُبا كِرُ الماء البارد فى صميم الشتاء، وكنت لا تلبس فى أشد أيام البرد غير ثياب الصيف، وكنت تحمل كذا وكذا ثقلاً وتُعانى كذا وكذا من ضروب القوة، وكنت تلوى بيديك عود الحديد وكنت وكنت

فتذممتُ والله مما خطر لى؛ وأنِفْتُ أن أنبه الرجل، ورأيت عملى ضعفاً وفسولة، ولم أعبأ بالهواء ولا بالعرق ولا بالنزلة الشُّعبية ولا بالزكام، وتركت الأوربىَّ وشأنَه، وأقبلت على كتاب كان فى يدى وتناسيت أن هذه النافذة جهةٌ من تدبير إبليس؛ وكان القطار مزدحماً بالراجعين من المرض الزراعى الصناعى وبعض الناس وقوف فلا مطمع فى مكان آخر . . .

ولبثتُ ساعة ونصف ساعة فى تيار من هواء فبراير ينصبُّ انصباباً ويعصف عصفاً وكأنى أسبح منه فى نهر تحت ظلمة الليل الماطر، والناس معجبون بى وبالأوربى، وهذا الأوربى معجب بى أكثر منهم وقد رأى مكانى وعرف موضعى؛ وكان إلى يمينى مجلس بقى خالياً ولم يقدم أحد على أن يجلس فيه خوفاً من الهواء ومن الرجل الأوربى . . .

ثم تراءيتُ أنوار محطة (طنطا) ولم يبق من هذه المحنة غير دقيقتين؛ فوالله الذى لا يُحلفُ بغير اسمه عزّ وجلّ، لقد كان إبليس رقيماً جلفاً بارداً ثقيل المزاح إذ لم أكد أتهيأ للقيام حتى رأيت الرجل الأوربى قد مدّ يده فأغلق النافذة . . .

* * *

ورجعت إلى دارى وأنا أقول: ثم ماذا يا إبليس؛ ثم ماذا أيها الدُّعْبب(1)؟ وحاولت بجهدى أن أكتب أو أقرأ فلم أتحرك لشيء من ذلك، وكانت الساعة العاشرة ليلاً فصليت وأويتُ إلى مضجعى

ثم أصبحت يوم السبت فاذا كتاب من الأستاذ صاحب (الرسالة) أنه سيطبع عددين معاً فيريد لهما مقالتين إذ تغلق المطبعة فى أيام عيد الأضحى، وكان أملى فى المقالة الواحدة مخذولاً مما قاسيت فكيف لى باثنتين؟

واختلط فى نفسى همٌّ بهمّ وما يفسد علىَّ أمرى شيء مثلُ الضيق فاذا تضايقتُ كنتُ غير من كنت؛ ولكنى تيقظت وتنبهت وأملت العافية بما أجده من ثقلة البرد وضعفته، وأحدثتُ طمعاً فى النشاط إذا جلست للكتابة فى الليل فانى بالنهار أعمل للحكومة

(1) الدعب والمداعب والدعابة (بتشديد العين) كلها بمعنى

فلما كان الليلُ لم أجد أمرى على ما أحب ، وجلستُ متفترا مملاً وثقُل رأسى من ضربة النافذة وتسلّط على ظنٌّ المرض والعجز عن الكتابة ، وانتقض الأمر كله فرأيتنى أشقّ على نفسى بلا طائل ، فكان من صواب التدبير عندى أن استجمّ بالنوم ثم أنهض فى السَّحَر للكتابة . فأوصيت من يوقظنى وحررنا الساعةَ المنبهة على تمام الثانية بعد منتصف الليل

وأحسست أنى جائع وأن معدتى مشحوذة ونسيت كل ما أعرف من الطب ؛ وجاءونى بشواء وحلوى وما بينهما ، فخلطتُ فيه ولففتُ الآخر بالأول ، ثم قمت أريد النوم فاذا الطعام كان أشد على من نافذة القطار ، وكان الذى فى الفكر من المقالة أثقلَ من الذى فى المعدة من الطعام ، وساء الهضم فى الدماغ والبطن جميعاً

وجعلت أتناوم وأرخى أعضائى وأتوهم الكرى وأستدنيه بكل ما أعرف من وسيلة ثم لا أزداد على ذلك إلا أرقاً ، وتمرّد الفكر وأحسست رأسى يكاد ينفجر وصرتُ أتَمَلْمَل ولا أتقارُّ ، وتوهمتُ أن لو كان لى عقلان ما استطعتُ كتابة المقالة عن ابليس لعنه الله . وأذكرنى الخبيث نادرة مضحكة : أن رجلا كان يركب حماراً ضعيفاً وكان يمشه فلا ينبعث ، فجعل يضربه فقيل له : ارفق به . فقال إذا لم يقدر يمشى فلم صار حماراً ....؟

* * *

وقذفت بنفسى من الفراش ونظرت فى الساعة فاذا هى موشِكَةٌ أن تبلغ الثانية ولم أحسّ الرقاد بعد ، فأسرعت إلى المنبّهة وحررتها على تمام الساعة الرابعة صباحا ؛ وأيقنت أن الشيطان يُرهقنى طغياناً وكيداً فطفقتُ ألعنه وما أحسبه إلا قد رأى اللعن مدحاً فهو يستزيدنى . . .

ثم رجعت أحاول النوم فما كان هذا الليل إلا شيئاً واحداً أوله آخره إلى أن طلع الفجر

وجاء يوم الأحد وهو يوم عُطْلة الأوربيين فما أشد عجبى إذ تركنى فيه ابليس كأنهم لا يَدَّعون له وقتاً فى هذا اليوم .....

والآن يزيّن لى الخبيث أن أختم هذه المقالة بـ .... بـ ....

ولكن لا . لا ؟

(طنطا)

أوربا على الجمر

١ ـ من فرساى إلى لوكارنو

مسألة الرين وسلام أوربا

بقلم باحث دبلوماسى كبير

وقع فى السابع من مارس الجارى حدث عظيم فى السيا الدولية لا زالت أصداؤه تدوى فى أرجاء أوربا ، ولا زال آثاره ونتائجه موضع البحث الخطير فى دوائر السياسة العليا ذلك هو إقدام الحكومة الألمانية على إلغاء ميثاق لوكارنو الخا بتأمين السلام على ضفاف الرين ، واقدامها فى نفس الوقت ع إلغاء آخر التعهدات والقيود العسكرية التى فرضتها عليها معاهد الصلح ، ووضع فرنسا وأوربا أمام الأمر الواقع باحتلال منط الرين الشرقية التى قضت معاهدة الصلح بتجريدها من السلا ومن كل وسائل الدفاع العسكرية

ولم يكن عمل ألمانيا مفاجأة مطلقة ، فقد كان معروفاً من أسابيع أنها تفكر فى انتهاج مثل هذه الخطة ، وأنها تترقب الفرصة لتنفيذها ؛ ومنذ أسابيع تتحدث الصحافة الألمانية عن منطقة الرين ووجوب تسليحها استكمالاً لحقوق السيادة الألمانية وصوناً لشرف ألمانيا وكرامتها ، ومنذ أسابيع تتحدث الصحافة الفرنسية عن نيات ألمانيا ، وما يجب على فرنسا أن تتخذه إذ أقدمت ألمانيا على تنفيذها

وقد نفذت ألمانيا خطتها ، واحتلت منطقة الرين الحرا فصائل من الريخسفر (الجيش الألمانى) فى نفس الوقت الذى ألقى فيه الهر هتلر من منبر الريخستاج الذى عقد خصيصاً لهذ الغرض خطابه القوى الجامع عن موقف ألمانيا تجاه السياسة الأوربية ، وتجاه فرنسا ، وأعلن فيه إنكار ألمانيا لنصوص ميثاق لوكارنو ، واعادة حقوق السيادة الألمانية كاملة على منطقة الرين

ويجب لكى نفهم حقيقة هذا الحدث السياسى والعسكرى